(١٠)

حكاية اللحظة الساخنة بعد ٤٠ عام من ارتداء بدلة الشرف العسكرية!

يقـول الجد لحفيـده: إن الجنرال "السيسـى" لم يكن يفكر فعلا فى الترشـح عندما أنكر فى سلسـلة أحاديث صحفية بعد ثورة ٢٣ يونيو مباشـرة نيته أو رغبته فى الترشـح للرئاسة.. كان يعنى ذلك تماما.. لم تكن مسألة الترشح واردة فعلا فى ذهنه.. ثم إنه يحب أن تتم الأمور فى أوقاتها وكان يحترم بدلته العسـكرية ولا يريد أن يتجاوزها بالتوغل فى الميدان السياسى المباشر وكان صامتا فى ذلك حيث لم يعلن ترشحه رسميا إلا بعد أن تقدم باستقالته من منصبه كوزير للدفاع.. حتى لا يتم اتهامه بعسكرة الدولة.. ولعل لحظة خلعه للرداء العسـكرى بعد ٤٠ عاما من الخدمة كانت من أصعب اللحظات على نفسـه وكادت دموعه أن تخذله أمام الملايين ولكنه فعلها لأن الشـعب طلب منه ذلك.. وبين رقة مشـاعر الرجـل ونظراته الواضحة الحاسمة.. وكلماتـه القليلة التى يختارها بعناية مغلفة بالصمت فـى أحيـان كثيرة.. بين هذا وتلك احتاروا فى وضعه وتحليل شـخصيته.. وتكتب أمانى عبد الغنى عن تقديرات غريبة حول السيسى وقالت فى محاولة منها للكشف عن الجوانب الغامضة من شخصية الفريق السيسى، عمد ريموند ستوك، الباحث بمعهد أبحاث السياسة الخارجية بواشنطن Foreign Policy Research Institute، إلى استجلاء رأى روبرت سـبرينجبورج الأستاذ بقسـم شـئون الأمن القومى بالكلية البحرية الأمريكية ومدير مركز الشرق الأوسط للعلاقات المدنية العسكرية، والذى استعان فى تحليله بالأطروحة التى كان السيسى قد أعدها أثناء دراسته بالولايات المتحدة الأمريكية عام ٢٠٠٦م، حول رؤيته بشأن الإسلام والدولة.

ويؤكد "سـبرينجبورج"، الذى يعد أول من كشف عن أطروحة السيسى تلك، إنه على الرغم من كون الورقة المقدمة من السيسى مصنفة على إنها وثيقة سرية، فإن عدم اشتمالها على أى من أسرار الدولة المصرية، إلا إن هيئة الرقابة القضائية قررت فى أغسطس ٢٠١٢ م الإفراج عنها والسـماح بنشرها بموجب قانون حرية تداول المعلومات الأمريكية، ولولا ذلك لما خرجت تلك الوثيقة إلى النور.

وفى هذه الورقة البحثية يذهب السيسـى إلى إنـه "يوجد أمل فى تحقيق الديمقراطية فى الشـرق الأوسـط، وفى مصر تحديدًا، على المـدى البعيد، ولكن نمـوذج الديمقراطية الذى سـيطبق فى مصر سـيكون مغايرًا لذلك الموجود فى الغرب"، وقصد السيسـى بذلك إن الديمقراطية فى الشـرق الأوسـط لن تكون مبنية على مبادئ العلمانية وإنما على مبادئ الفكر الإسلامى. وفى ضوء تلك الورقة يرى سبرينجبورج أن السيسى، الذى وعد بعد عزل

مرسى باستعادة الديمقراطية خلال تسعة أشهر هى فترة المرحلة الانتقالية الثانية، لديه النية للاستئثار بالسلطة، وحذر من "أجندته الإسلامية" مؤكدا أن السيسي لن يستعيد "السلطوية العلمانية" التى انتهجها مبارك، ولكنه سيطبق نظامًا مختلطًا يجمع بين الإسلامية من جهة والعسكرية من جهة أخرى.

ويرى" ريموند ستوك" إنه على الرغم من تقدير السيسى، فى أطروحته البحثية، للخلافة الإسلامية باعتبار ما لها من فضل فى توحيد العالم الإسلامى وإكسابه القوة والشموخ، إلا إنه أشار إلى استحالة عودة الخلافة الإسلامية مرة أخرى، بخلاف مرسى الذى يعتقد جازمًا بعودتها، وإنها حتى لو عادت فإن السيسى يتمنى أن تكون عاصمتها القاهرة، وليس القدس كما يتمنى مرسى، الأمر الذى يبرز انتماء السيسى لبلاده وحبه لها.

وعلى العكس من ذلك يرى كل من مايك جيجليو وكريستوفر ديكى، إن نشأته فى أسرة محافظة متدينة باعتدال تؤمن بمبادئ القومية، جعلت الاعتبارات القومية هى المحدد ذو التأثير الأبرز فى تصرفاته وهى الدافع الرئيس لما اتخذه من إجراءات أفضت فى نهايتها إلى عزل مرسى عن السلطة، ذلك لأن الفوضى الحاصلة والتردى الاقتصادى والاضطراب السياسى كانت قود الثورة الشعبية التى أطاحت بمبارك؛ ومن ثم فإن استمرار تلك العوامل هى التى دفعت السيسى إلى التحرك ضد مرسى الذى فشل فى التعامل الإيجابى مع تلك الملفات الحساسة للدولة.

القائد حورمحب: النموذج الفرعونى للسيسى

ويذهب "ريموند" ستوك بعيدًا ليبحث فى أعماق التاريخ المصرى فى محاولة منه لعقد مقارنة بين السيسى وعدد من الشخصيات العسكرية التى تولت عرش مصر، ليخلص إلى أن أشدهم قربًا لسلك السيسى هو القائد العسكرى حورمحب آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة، والذى كان يشغل منصب قائد الجيش فى عهد الملك إخناتون، أمنمحتب الرابع، الذى حكم مصر خلال الفترة بين ١٣٥٣-١٣٣٦ ق.م، وأطلق على نفسه اسم "فرعون التوحيد"، حيث انشق عن عقيدة الكهنوت وانشغل عن متابعة اقتصاد البلاد وأمنها بملاحقة من لا يزال على العقيدة القديمة.

وكحال محمد مرسى، فقد حرص إخناتون على محاباة التابعين له وتنصيبهم فى الوظائف العليا بالدولة، الأمر الذى أدى إلى التدهور الاقتصادى والأمنى فسادت الاضطرابات

وعمت الفوضى والسخط الشعبى أرجاء البلاد، وعلى الصعيد الخارجى تهاون إختانون فى ضياع إمبراطورية الشرق الأدنى وذهابها للغزاة من دون محاولة واحدة للدفاع عنها، وهو ما يتشابه مع مسلك مرسى فى أواخر يونيو ٢٠١٣م حينما هدد بإعلان الجهاد ضد بشار الأسد، فى خطوة لم يرض عنها الجيش الذى ليس لديه أى نية للدخول فى حرب مع دمشق، كما سمح للبعض فى مؤسسة الرئاسة بإطلاق تهديدات بضرب سد إثيوبيا من دون استشارة الجيش، والأكثر خطورة تصريحه للرئيس السودانى عمر البشير بأنه سيتنازل له عن جزء من الأراضى المتنازع عليها بين البلدين، الأمر الذى دفع حورمحب إلى الإطاحة بإخناتون، وتنصيب نفسه فرعونًا لمصر فى التاريخ القديم، ودفع السيسى إلى الإطاحة بمرسى مؤخرا، ربما بانتظار أن يتبوأ مقعد الرئاسة فى الوقت المناسب على غرار سلفه حورمحب.

إشكالية "الشعب يريد"

وإذا كان الوقت وحده هو الذى سيوضح ما إذا كان السيسى الذى يحاول اجتذاب تفاصيل المشهد السياسى باتجاه تشكيل حكومة تكنوقراط مدنية من اختياره هو بالفعل شخصية تنتمى للفكر القومى أم للفكر الإسلامى، وما إذا كان سيعيد لمصر مكانتها مثلما فعل حورمحب ويسعى إلى تعزيز الاستقرار والديمقراطية، أم إنه سيكشف لنا لاحقًا عن شخصية عسكرية تعسفية كانت تتخفى وراء ستار الديمقراطية لتحقيق مآربها بالوصول للحكم، فإن الرأى العام الغربى منشغل بقضية الضغوط الشعبية التى تدعم ترشيح السيسى رئيسًا لمصر، ولو بدون انتخابات وفقا لما جنحت إليه بعض الحملات الشعبية النشطة فى هذا الإطار.

وعن ذلك عرض لأبيجال هوزلنر بصحيفة الواشنطن بوست مقالة بعنوان "المصريون يعدون السيسى للرئاسة"، تناول فيها الحملة التى انطلقت فى شوارع مصر، لجمع توقيعات الهدف منها هو إقناع الفريق أول عبد الفتاح السيسى بالترشح للرئاسة، حيث يجوب منظمو الحملة الشوارع لجمع توقيعات المؤيدين والأرقام الخاصة ببطاقات هويتهم، وقد نجحت الحملة، وفقًا لمنظميها فى جمع أسماء حوالى تسعة ملايين شخص، أى ما يعادل ١٠٪ من إجمالى سكان مصر، لتأييد السيسى الذى وصفته الصحيفة بإنه "انقلب" على أول رئيس منتخب فى مصر.

أما "روث بولارد" بصحيفة "الجارديان"، فقد أشار، فى مقالة بعنوان "كل العيون تذهب إلى السيسى وتسأله السلام"، إلى تصاعد نفوذ المؤسسة العسكرية داخل المنظومة السياسية فى ضوء حقيقة مفادها إن السيسى بات فى عيون المصريين بمنزلة المنقذ الذى سيعيد الأمن والسلام إلى أرض الاضطراب، وركزت الصحيفة على ربط المصريين بين صورتى الفريق السيسى والرئيس الراحل جمال عبد الناصر، لإقناعه بالدخول إلى معترك السياسة لاستعادة أمجاد الحقبة الناصرية.

وإلى جانب الاضطرابات وحالة العنف السائدة فى مصر يوضح بولارد إنه على الرغم من رفض جماعة الإخوان المسلمين وحلفائها لأفعال السيسى ووصفهم لها بالانقلاب على الشرعية، فإن حالة الانقسام التى باتت تمثل سمة من سمات الأحزاب السياسية فى مصر تشكل تربة خصبة لصعود شخصية من المؤسسة العسكرية نجحت، إلى حد كبير، فى استقطاب دعم شعبى لها مكنها من أن ترسخ وجودها داخل الفراغ الحاصل فى السلطة والذى أحدثه ذلك الانقسام.

ويشير "بولارد" فى ذات السياق إلى تمتع السيسى نفسه بكاريزما خاصة لدى المصريين، مكنته من أن يضع نفسه فى قالب شخصية عبد الناصر ليصبح انعكاسا لصورة الجنرال الراحل فى أذهان المصريين، وكمثل أنور السادات ظهر السيسى بمظهر الشخص الورع الذى يخاف الله ويحافظ على مظاهر التدين التى تمثل لدى المصريين قدسية خاصة.

ترى قطاعات واسعة من المصريين، وفقا لأبيجال هوزلنر، إن مصر بحاجة إلى حاكم قوى، يكون ولاؤه للشعب وليس لفرد أو جماعة؛ وأن يكون غير طامع فى سلطة، وفكرة الطمع فى السلطة هذه هى التى تجعلهم يشبهون السيسى بعبد الناصر الذى تنحى عن منصبه بعد هزيمة ١٩٦٧م ليعود إليها بضغط شعبى، ومثلما خلص مصر من الحكم الملكى وشن الحرب على القوى الغربية العظمى، وأمم قناة السويس، فإن السيسى، وفقا لمؤيديه، خلص مصر من التبعية للولايات المتحدة من خلال الإطاحة بمحمد مرسى، حيث يعتقد الكثير من المصريين أن الولايات المتحدة تدعم جماعة الإخوان المسلمين، والكثير من المصريين يتوسمون فى السيسى القدرة على إعادة مصر إلى مكانتها، لذلك ترى صوفيا جونز إن قرار الولايات المتحدة الأخير بتعليق بعض مساعداتها إلى مصر قد أضاف للسيسى زخما شعبيا جديدا، وجعل منه بطلا قوميا، حيث رحب المصريون بقرار التعليق واحتمالية القطع ورأوه خطوة جادة على طريق تحقيق الاستقلال السياسى لمصر.

الرهانات الخاسرة: رئيس على كل الأحوال

وفى سياق متصل يشير المعهد الدولى للدراسات الاستراتيجية فى ورقة بحثية بعنوان "مصر: تغير السياسات تحت سيطرة الجيش" إلى تغير ميزان القوى فى مصر وتحول السياسات العامة تحت حكم الجيش وكيف ستضرب المؤسسة العسكرية بجذورها فى معترك التنافس الانتخابى القادم، وتحاول أن تعلى من رصيدها الشعبى مشتغلة فى ذلك على وتر الكرامة ومشاعر العزة القومية، ومعتمدة فى خطابها الإعلامى على تمصير الإسلام وإظهار تبنيها النموذج المعتدل منه على عكس ما فعل الإخوان المسلمون، وإبداء إمارات الولاء للشعب، ولعل المظهر الذى يخرج به السيسى على الشعب مرتديا عباءة حمال عبد الناصر تبرز هيمنة المؤسسة العسكرية على السلطة المدنية، ما دفع العديد من المصريين للالتفاف حول المؤسسة العسكرية لاستعادة النظام العام.

والسؤال الأجدى بالطرح فى هذه المرحلة ليس هو هل سيترشح السيسى للرئاسة أم لا؟ ولكن هل سيحكم السيسى البلاد بشكل مباشر من خلال خوض الانتخابات الرئاسية القادمة والفوز فيها، أم إنه سيعزف عن الترشح وسيؤثر البقاء بنفوذه وسطوته فى الخلفية ومتابعة المشهد من بعد تاركًا رئيس الجمهورية وحكومة تكنوقراطية تدير شئون البلاد وتبقى فى الصدارة؟

أجاب عن هذا التساؤل معهد كارنيجى للسلام فى ورقة بحثية أعدها الباحث سكوت ويليامسون بعنوان "ضعيف للغاية...ومتأخر للغاية: رهان المعارضة الليبرالية فى مصر" شدد فيها، بداية، على خطورة عودة النفوذ العسكرى على العملية الديمقراطية. ويشير الباحث إلى إنه على الرغم من أن التعاون مع الجيش أتاح لليبراليين هزيمة خصومهم الإسلاميين، على الأقل فى الوقت الحاضر، إلا أن رهانهم على حصان العسكر حمل فى طياته خطرا كبيرا يتمثل فى تجدّد السطوة الأمنية على حساب القيم الديمقراطية التى تعد المسعى الأكبر لعدد كبير من الأحزاب العلمانية والناشطين الليبراليين فى مصر.

وبعد أكثر من ثلاثة أشهر على عزل مرسى، يستحيل الخطر المحتمل، فى نظر ويليامسون، باديا للعيان فى ظل حملات التضييق على الإخوان المسلمين ومعارضى الانقلاب بشكل عام، فى مشهد يعيد إلى الأذهان إحياء الدولة البوليسية التى تتجلى مظاهرها فى الإجراءات القانونية والمؤسسية الحالية، ولاسيما قانون الطوارئ الذى أعيد فرضه من جديد، وهى الأجواء التى تتزايد فيها التكهنات وتترجح احتمالات ترشح السيسى كونه

الشخصية الأكثر قبولا وشعبية فى الوقت الحالى، الأمر الذى يعزز من مخاوف عودة الدولة البوليسية بكامل سطوتها القمعية، وفقًا للباحث.

ولذلك يرى "ويليامسون" أن هذا بدوره دفع بعض رموز العلمانيين إلى التعبير عن معارضتهم، على استحياء، لفكرة ترشح السيسى للرئاسة خوفا من بلوغ شخصية عسكرية سدة الحكم، ومن بينهم حمدين صباحى الذى تراجع عن دعمه لترشح السيسى، وكذلك فريد زهران نائب رئيس الحزب المصرى الديمقراطى الاجتماعى، وبعض أعضاء حركة تمرد الذين رفضوا التعليق على تصريحات القيادى بالحركة محمود بدر بإن تمرد ستدعم السيسى رئيسا لو لم يعود الأمن إلى البلاد.

ووفقًا لويليامسون، فإن أوان التعبير عن الرفض قد فات، حيث إن القوى الأمنية، وفى القلب منها الجيش، قد أرست لنفسها قواعد سيكون من الصعب العودة عنها، ذلك إن قيام الجيش بعزل مرسى أضفى نوعًا من المشروعية على تدخل المؤسسة العسكرية فى إدارة البلاد والتأثير فى كل الرؤساء القادمين، وخاصة ممن لا يتمتعون بشعبية واسعة، وعلى الجانب الآخر فإن العنف الذى تم التعامل به مع مؤيدى مرسى سيؤثر فى أى حملات تعبوية شعبية فى المستقبل، من غير المؤيدين لمرسى، ضد المؤسسة العسكرية، وبذلك يصبح الليبراليون هم الطرف الخاسر فى رهانهم على التحالف مع الأجهزة الأمنية التى ذهبت لصالح الدولة البوليسية الصاعدة التى تتمتع بالفعل بالقوة، وكل المؤشرات تؤكد أن الجيش والشرطة سيمضيان قدما فى تثبيت سلطتيهما بالشكل المناسب داخل المنظومة السياسية فى مصر لأجل غير مسمى.

وبعد أشهر من هذا المقال.. وبعد فتح باب الترشح للرئاسة.. صدقت التوقعات ولم يستمر فى السباق الرئاسى أمام السيسى سوى حمدين صباحى وقد كان أعلن فى لحظة حماس أولى بعد ثورة ٣٠ يونيو إنه لا يمكن أن ينزل إلى ساحة الانتخابات ويواجه.. بطل الثورة أمام الصندوق.. وبصرف النظر عن الأسباب التى جعلته يغير رأيه وأبعد من ذلك ينزل واثقا برغم الظهير الجماهيرى العريض مع السيسى.. لكنها حساباته التى يجب احترامها.

هل من مزيد

ويريد الحفيد أن يعرف المزيد مما كتبه وقاله الأمريكان والغرب عموما عن السيسى.. ويجيب الجد الذى يبدو أنه حفظ أرشيف الحكاية كلها فى رأسه حيث قال فى شهر

أكتوبر من عام ٢٠١٣م.. ذكرت صحيفة "وول ستريت جورنال" الأمريكية إن الفريق أول عبد الفتاح السيسى، عاد فى ثوب "عبد الناصر" وأذل أوباما وحرمه من أى مكاسب داخلية على الأرض الأمريكية، حيث إن متداولى الأسهم فى البورصات العالمية أصبحوا يدركون اليوم، أكثر من أى وقت مضى أنه قد أصبح فى مصر "ناصر جديد" يصر على إذلال أوباما.

وأضافت الصحيفة أن عبد الفتاح السيسى، يدرك أن الإدارة الأمريكية الحالية باتت مكشوفة أمامه تماما، ولذا قرر أن يعمق من خسارة "أوباما" بالضغط على أكثر ما يثير اهتمام المواطن الأمريكى وهو الاقتصاد. فبينما كانت التوقعات تشير إلى مرحلة انتعاش تعززها حالة سوق العقارات والاحتياطى الفيدرالى وتراجع النفقات العسكرية فى الشرق، قرر "ناصر الجديد" أن ينهى كل ذلك دون استخدام السلاح، فقط عبر الميكروفون الذى دعا فيه الشعب المصرى للنزول يوم الجمعة للميادين لتفويضه للقيام بعمليات أكثر قسوة ضد الإرهابيين، وهو ما يعنى أن هناك عمليات واسعة ستدور ليس بعيدا عن قناة السويس وهو ما يعنى إحداث حالة واضحة من إرباك سوق البترول وتكبيد الولايات المتحدة الكثير من الخسائر خلال أيام قليلة. وأشارت الصحيفة إلى أن ما خسرته أمريكا صبيحة خطاب "السيسى" وبسبب تصريحاته ودعوته يفوق حجم المعونة العسكرية الأمريكية التى تقدمها لمصر ببضع ملايين من الدولارات، لكن رد فعل "أوباما" جاء صبيانيا بامتياز، حيث أوقف تسليم صفقة طائرات "إف ١٦" بصورة عقابية لم يؤيده فيها الكونجرس الذى يتململ من تصرفات أوباما الأخيرة، والتى كان من ضمنها إصرار أوباما على إبقاء برامج التجسس مشيرة إلى أن السيسى جعل الأمريكان يظهرون بهذا المظهر الهستيرى ليزيد فرص حصوله على المزيد من التنازلات الروسية خاصة فيما يخص أسعار الطائرات البديلة وصفقات القمح، ما يعنى أنه بدوره يمارس دورا يراه بدقة لتكبيد الاقتصاد الأمريكى خسائر تفوق حجم المعونة العسكرية، بينما يتجاهل أى اتصالات من الإدارة الأمريكية.

وبعد أيام قليلة من ثورة ٣٠ يونيو نشرت وكالة الأنباء الفرنسية تقريرا وصفت فيه السيسى بأنه رجل مصر القوى.. وأوضحت أن معظم رجال الإعلام والصحافة الذين اقتربوا منه أكدوا أن همه الرئيسى منذ أن تولى وزارة الدفاع أن يرد الاعتبار للجيش المصرى وإنه يشعر بالأسى من هتاف "يسقط حكم العسكر" التى ارتفع أثناء فترة المجلس العسكرى

بقيادة المشـــر طنطاوى.. وقد كان قريبا من قيادات الإخوان ويعرفها جيدا حتى إن البعض عن اختياره كوزير للدفاع اتهموه "بالأخونة" نظرا لتدينه وجديته وبعد أيام قليلة من ثورية ٣٠ يونيه أكدت وكالة "الأسوشيتدبرس" أن المصريين الذين يبحثون عن زعيم يعيد للأمة ترابطها وجدوا ذلك فى شـخص وتقدم اليه بعرظية يطالبونه فيها بالترشح.. ولكنه قابل ذلك بهدوئه المعتاد حيث لم يكن الظرف مناســبا.. وقد تحول الأمر إلى حملة شعبية بدعم من شخصيات عديدة بينما تعالت بعض الأصوات تطالب برئيس مدنى.. وأشارت الوكالة الأمريكية إلى أن وســائل إعلام الدولة والمحطات التليفزيونية المتعاطفة ســاعدت على دعم شــعبية السيسى، هذا بالإضافة إلى الأغانى الشــعبية التى تشيد به وبالجيش وصوره التى تنتشر فى شوارع مصر.

وتقول "الأسوشيتدبرس" إن السيسى استطاع خلق صورة شعبية لنفسه، بصفته الرجل القوى الذى أنقذ الأمة، وفى نفس الوقت الرجل صاحب الكلام المعسول الذى يضع مصالح الشعب فى قلبه، وهو ما ساعد على استعادة هيبة الجيش بعد فترة من الانتقادات الواسعة عندما حكم المجلس العســكرى برئاســة المشــير طنطاوى البلاد، إذ إن أولئك الجنرالات ينتمون لجيل أقدم كثيرا من جيل السيسى.

وأشــارت إلى أن فكرة ترشح السيســى للرئاســة لقيت استحســانا بين عدد من كبار القيادات السياســية، ومن بينهم مرشــحو الرئاسة السابقون عمرو موسى وحمدين صباحى وأحمد شــفيق، كما يبدو الرئيس الأســبق حســنى مبارك مؤيدا للفكــرة، ويظهر ذلك فى التسجيلات الصوتية المسربة التى انفردت ببثها صحيفة "اليوم السابع".

وتضيف أن هناك شــعورا بين المصريين بالحاجة إلى زعيم قوى، بعد ثلاث سنوات من الفوضــى والتدهور الاقتصادى، كما أنه لم يبرز زعيم محتمل من بين مجموعات الشــباب والأحزاب الجديدة بعد سقوط مبارك يمكنه تحقيق المطالب الشعبية بالتغيير.

ويؤكــد الجد أن تقرير الوكالة الأمريكية يكشــف أكاذيــب الإدارة الأمريكية والإخوان من أن السيســى قام بالانقلاب كما يســمونه وصولا إلى كرسى الحكم.. على حساب مرسى الرئيس الفاشل كما أطلق عليه الملايين من المصريين.

❑❑❑